الفصل السادس:

كان هدفي ذلك اليوم هو قرية أم الرويق على الحافة الشرقية لجبل الدروز، وتذكرت أخطاء وتقلبات الخريطة، فأخذت معي أحد أحفاد محمد النصر كدليل، ـ واسمه فايز ـ وهو أخو كيشكاش شيخ أم الرويق. وكنت قد اخترته في الليلة الماضية حيث كان العضو الأكثر كياسة في حلقة المضافة. ولم تغير رفقتي معه التي استمرت أربعة أيام من نظرتي هذه ولم أشعر بأي أسف لهذا الخيار. وهو رجل ملامحه لا تثير الإعجاب فأنفه معقوف، وفمه ملتوٍ وأنت لا تستطيع أن تستخلص أي شيء من النظرة المستقيمة المستقرة في عينيه، وسلوكه مهذب على نحو متميز ولطيف ويتحدث بذكاء. وهو جيد النصيحة والمأخذ. ولم نكن قد ابتعدنا كثيراً عن حافة الهضاب، وجعلت أنظر إلى السهل الشرقي وكأنه الأرض الموعودة التي لن تطأها قدماي، وذلك قبل أن يكشف فايز عن خطة تقضي بأن نترك البغال والخيام في أم الرويق، ونخطف رجلينا عبر حرة الصفا إلى الرحبة حيث توجد خربة أثرية عظيمة أضرم وصفها النار في مخيلتي. وبثانية واحدة تغيرت ألوان العالم، وظهر النجاح في السماء الزرقاء، وتعلق بضباب ذهبي فوق ذلك السهل الذي أصبح دخوله في المتناول.

كان طريقنا ينحدر انحداراً قوياً من صاله باتجاه السهل، وخلال نصف ساعة من السير كنا خارج منطقة الثلج والصقيع الذي كان يضربنا البارحة ليل نهار. وبعد نصف ساعة أخرى وصلنا إلى وادي بوصان، حيث كانت المياه المنحدرة بسرعة تدير طاحوناً. وهكذا تركنا أرض الشتاء خلف ظهورنا، وقد

بدت صالة الواقعة إلى الشمال من وادي بوصان منطقة مزدهرة، وتحتوي على عينات جيدة من الفن الهندسي المعماري الحوراني، أذكر بشكل خاص عتبة فوق باب نُقش عليها درج مزدوج من عناقيد العنب، وأوراق الكرمة التي تنحدر من على جانبي مزهرية تشغل مركز العتبة الحجري. وعلى أطراف صالة قدمنا إلى حافة السهل العظيم، ورأينا حرة الصفا تنبسط مثل بحر تحت أقدامنا. والوجه الغريب فيها، هو أن سطحها يبدو أسود مثل سطح بيت شعر أسود، ويعود ذلك إلى ملاءة اللابة البركانية وحجارتها البازلتية السوداء التي كانت منتشرة فوقها. وكان ثمة بقع صفراء في بعض الأماكن التي اكتشفت فيما بعد أنها التربة التي تكومت فوقها الأحجار المسامية قد انكشفت بغياب

٥٧ ـ أسوار القنوات

هذه الأحجار على نحو عرضي. ويطلق العرب على هذه الأرض اسم البيضا نقيضاً لاسم الحرة أي أرض الحجر المسامي واللابة المحترقين. والأرض البيضا في حرة الصفا جرداء مثل أرض اللابة، مع أن كلمة بيضا تعني غالباً الأرض الصالحة للزراعة، ولذلك فقد سمعت فايزاً يصرخ بالبغالة ابعدوا عن

البيضا.. وذلك عندما دخلت البغال في حقل مزروع بالقمح. وهذا لا يمكن أن يعني حرفياً على أي حال قول المتنبي:

الخـــيل والليل والبـــيـــداء تعـــرفني

والســـيف والرمح والقـــرطاس والقلم

وتمتد الصفا ككتلة سوداء من البراكين تنبسط من الشمال إلى الجنوب ولكننا كنا على ارتفاع كبير فوقها بحيث لم يكن بالإمكان إدراك مقدار ارتفاعها. واستطعنا أن نرى مرة أخرى البيداء الواسعة الامتداد خلفها حيث سهل الرحبة، وإلى الجنوب والشرق، وفي السهل العظيم الممتد حتى الأفق تحدد فوهات بركانية قليلة العدد جداً نهاية بروزات الحمم في حوران، وبداية سهل الحماد، وهو الأرض الصحراوية الخالية من المياه، والتي تمتد حتى بغداد. وإلى الشمال هناك توجد الهضاب المحيطة بقرية الضُّمَير. وأبعد من ذلك إلى الشمال ثمة سلسلة أخرى تحيط بواد عرضه عشرة أميال يقود إلى تدمر. كما تمتد هذه الهضاب نحو الخلف حتى منحدرات لبنان الشرقية ذات الرؤوس المغطاة بالثلوج والتي تشرف على الطريق المؤدي إلى حمص. ثم نتجه شرقاً إلى شبيكة وهي موقع غريب لافت للنظر مبني فوق واد تتكون حافته الشمالية من مجموعة من الكهوف تشبه قرص العسل. وإلى الشمال إلى الشخلي والرامة على الحافة الجنوبية لأعمق أخدود وهو ما يطلق عليه اسم وادي الشام حيث تقطنه أبعد القرى المسكونة إلى الشرق وهما قريتا الفضامة والجعتا، والمستقرات البشرية على هذه الجهة من الجبل لها قيمة أثرية كبيرة. فالقرى الكهفية ربما كانت تعود إلى الفترة ما قبل زمن الأنباط، وربما كانت تعود إلى ما قبل تاريخ الملك أوج الغامض، أو إلى الشعب الذي سمي باسمه

عندما كانت كل المدن تبنى تحت الأرض، والمثل الأشهر على هذا الطراز من البناء مدينة درعا في حوران الواقعة إلى الجنوب من مزيريب، وتركنا المشنف إلى الغرب ليس بدون أسف من جهتي، إذ لم يكن لدي وقت لمشاهدته حيث يعكس صهريجه الكبير أحد أكبر المعابد سحراً في جبل الدروز من دون استثناء آثار بلدة قنوات الرائعة. وتجثم العجلة إلى شمال وادي الشام على قمة تل عال، بحيث يلامس خط ثلج شهر شباط، وثمة واد آخر يهبط منه باتجاه الصفا. وقد سمعت عن وجود خربة أثرية ونقوش في مجراه السفلي ولكنني لم أزرها، ووصلنا إلى أم الرويق حوالي الساعة الرابعة ونصبنا خيامنا على حافة رف الجبل، حيث كنت أستطيع من خلال باب خيمتي المفتوح أن أشاهد كل امتداد حرة الصفا.

٥٨ ـ باسيليكا قنوات

كان الشيخ كيشكاش كله ابتسام، وكنت أستطيع طبعاً أن أركب إلى الرحبة لو أخذته مع ابنيه أحمد وفايز معي في هذه الرحلة. وسخر من فكرة عدد

الحرس الكثير. ولوجه الحق كان الغياث خدمه وحلفاءه وسوف يستضيفونا مثلما يجب أن يستضاف النبلاء ويقدمون لنا أفخم المأوى، وتغديت معه (لم يقبل أي رفض) واستخلصت إلى أنه سريع الغضب ومغرور وأحمق، كثير الكلام على الرغم من أن كل ما يقوله لا يعادل جملة واحدة تخرج من فم فايز. واحتفظ فايز بصمت نسبي بين جماعته، كما لم يتحدث أحمد إلا قليلاً، ولكن هذا القليل كان حساساً ويستحق السماع. وروى كيشكاش حكايا كثيرة حول الصفا وما تحتويه والزبدة التي يستخلصها الإنسان، إضافة لموضوع الخرب الأثرية المعروف من سابق هو عدم وجود أي شيء يستحق الذكر قبل مسيرة يوم كامل شرقاً بعد الرحبة، حيث تجد هناك مقلع حجارة وحصناً مخرباً يشبه الحصن الأبيض في الرحبة الذي سوف نذهب إليه، إلا أنه أصغر ومخرب أكثر، وخلف ذلك يمتد الحماد حيث لا مساكن ولا رجوم، وحيث يجبر أكثر العرب شجاعة على هجره في الصيف بسبب خلوه نهائياً من الماء. وذهب فؤادي إلى الحصن الغامض الواقع إلى الشرق من الرحبة، والذي لم يزره حسب اعتقادي أي من الرحالة. ولكنها رحلة بعيدة المدة ومن الصعب إنجازها ارتجالاً بدون تحضير مسبق. «وعندما تعودين مرة أخرى يا سيدتي» نعم عندما أعود، ولكني لا أستطيع أن أعتمد في فرصة المستقبل على ضيافة الغياث الرائعة الفخمة.

وبعد مناقشة قررت أن يرافقنا ميخائيل وحبيب وكان أخذ الأخير قد تم بناءً على طلبه. فسوف يركب بغلته المفضلة. قال: وسوف تستطيع أن تجاري بالخطو أي فرس وأن تحمل إضافة إلى ذلك البسط والبطانيات وخمسة فراريج سوف نأخذها معنا دعماً لضيافة الغياث. وكان لدي فروة من جلد

الغنم حزمت خلفت سرجي وآلة تصوير ودفتر ملاحظات، كالعادة موضوعان في خرجي، وهبطنا منحدرات الهضاب الشاهقة لساعة من الزمن والتحق بنا ثلاثة من الخيالة الدروز أثناء السير، واكتشفت فوراً أن الشيخين قد أضافوهم إلى الحرس المتعاقد معهم. ولكني امتنعت عن أي تعليق، كان أحد الثلاثة قريباً لكشكاش واسمه خطاب وكان قد سافر مع (اوبنهايم) وبرهن عن صحبة مفيدة، وعبرنا أرض كشكاش المفلوحة ثم هبطنا المنحدرات البور تقريباً والتي تؤمن مراعي كافية لأغنامه التي يرعاها العرب. ودخلنا عند سفح الهضبة وادياً محجراً حيث صادفنا قليلاً من الخيام محاطة بقطعان أكبر ترعى عشاءها بين جلاميد الصخور. وبعد ساعة من السير في الوادي المتمعج بين الصخور دخلنا إلى فسيح حرة الصفا المقفرة. وهي في معظمها منبسطة ولكن ليس بشكل تام.

٥٩ ـ قنوات مدخل الباسيليكا

ويتكسر سطحها بتموجات صخرية قليلة الارتفاع ولكنها عميقة بما يكفي إغلاق المنطقة في وجه الفارس في المنخفض، بحيث أن الفارس قد يسير ساعة أو أكثر دون أن يرى شيئاً سوى خط سماوي من الحجر الأسود أعلى من رأسه بقليل وعلى الجانبين. وللتمعجات مخطط نظامي. فهي تشكل أودية خالية من الماء لكل واحد منها اسم عند العرب. وتغطي كتل الأحجار البركانية المسامية كلاً من الوديان والحواف بسماكة تختلف وتتراوح

بين ستة بوصات إلى قدمين أو أكثر. ويلاحظ الإنسان حيثما يوجد فسحات بين هذه الصخور التربة الصلبة الصفراء المكونة من الرمل البحري الملون الممتد تحت هذه الصخور، واندفعت أعداد كبيرة من شجيرات ضئيلة الحجم شقت طريقها بين الصخور كالحماض والشيح والحجانة، كما قد تبعثرت بينها هنا وهناك أعشاب إبرة الراعي الدقيقة والثوم النجمي وأوراق الخزامى. وبشكل عام ليس هناك فسح أو مسافات كافية بين الصخور لنمو أرفع النباتات ساقاً لأنها جد متقاربة. وهي سوداء ناعمة ليس لها حواف كما لو كانت مصقولة بالمياه الجارية، وعندما تشرق الشمس يلتمع الهواء فوقها كما يتوهج فوق صفيحة من المعدن المصهور، أما في الصيف فإن المقارنة يجب أن تتم مع شيء أكثر توهجاً من المعادن لأن الحرارة القاسية لا يمكن تحملها تقريباً. ويجب أن يكون قطع الصفا في الصيف صعباً إذا لم يكن من أجل حرها فمن أجل الممرات الدقيقة التي لا تحصى وتتقاطع متشابكة في داخلها. يكون الراكب غير عارف فيها في البداية فهي صغيرة وهزيلة. وتأخذه الحيرة حالاً بسبب وجود عدد كاف من الفسحات أمامه يستطيع الحصان أن يخطو من خلالها فيكتشف أنه يسير على طريق. لقد مرت مئات الأجيال على أقدامها مندفعة بين الصخور البركانية المسامية حتى لو كانت المسافات بينها ضئيلة جاعلة السفر ممكناً عبر هذا القفر من الصخور.

ومررنا قرب وهدة تدعى غدير الفرز وصادفنا بعد ساعتين رجلاً يلبس أسمالاً اسمه قلب الله. وقد سر كثيراً لرؤيتنا وتصرف كما لو كان صديقاً للعائلة منذ سنين عديدة (منذ ثمانين سنة يجب أن أعتقد) وقد دهش كثيراً عندما اكتشف وجودي بين الخيالة. وقد زالت دهشته عندما سمع أنني إنكليزية ولكن هذا لم يغير شيئاً من تصرفه، ولكن عقله لم يستطع استيعاب

أسماء وأنساب الأغراب. وقد أخبرنا أن ثمة ماء في الجوار وأن خيام بعض البدو لا تبعد عنا أكثر من مسيرة ساعتين. وأن خطة كشكاش تسير بسلام. ويجب أن ينعم بالسلام الغريب السائر برفقته. وقد كذب في موضوع وجود خيام العرب أو أننا لم نستوعب ما قاله، أما بالنسبة للماء فقد وجدنا بركة موحلة تغدينا بجانبها وتقاسمنا ذلك مع قطيع من الجمال. لا يوجد ماء في الصفا صالح للشرب وفقاً للقوانين الأوربية. كما يصح الأمر نفسه في جبل الدروز فلا توجد ينابيع في الجبل.

٦٠ ـ معبد قنوات

فالماء يتجمع في صهاريج مكشوفة، ويجب أن يعد الرحالة نفسه محظوظاً إذا لم يطلب منه أن يشرب من الماء الذي شاهد البغال والجمال تتمرغ فيه. وفي أفضل الظروف ملاءمة من المؤكد وجود شوائب ثقيلة وجزيئات غريبة لا تزول بالغلي ويمال إلى الظن بأنها ـ نسبياً ـ غير ضارة. والشاي الذي يعمل بهذه المياه له قوامه الخاص ونكهته الخاصة، ويشبه لونه لون القهوة العكرة، ويترك رواسب في قعر الكأس. ويحمل ميخائيل جرة من الفخار فيها ماء

مغلي من أجلي من مخيم إلى مخيم. وقد أجبره هذا الاحتياط الوقائي على رفضي الشرب من البرك والصهاريج التي يمكن أن نصادفها في طريقنا، ولم أجد صعوبة في اتباع نفس النظام في حرة الصفا. وكان هو والدروز والبغالة يشربون من الماء حيثما وجدوه سواء في الجبل أو الصفا، ولم تظهر عليهم أي أعراض مرضية. وربما كانت الجراثيم الموجودة في جرعاتهم الملوثة غير المبالية من الماء ذات فوعة قوية بما يكفي لتدمير بعضها.

وركبنا فوق الصخور المتتابعة، صخور بعد صخور، كما لو كانت صخور العالم كله قد اجتمعت هنا. وحتى كشكاش لزم الصمت أو تكلم فقط ليتساءل بعجب أين يمكن أن تكون خيام الغياث وارتأى خطاب بأننا عندما نصل إلى القنطرة سوف نجدهم، وأصغيت بانتباه شديد منتظرة أن أشاهد نوعاً من البناء ولكن القنطرة لم تكن إلا مرتفعاً صغيراً من الأرض أعلى قليلاً مما حوله وليس أقل صخوراً وكان هناك العديد من المرتفعات المشابهة لها، حيث ثمة مسلك في معظمها يقود إلى قمتها، حيث يزحف العرب على بطونهم ليراقبوا أعداءهم مختبئين خلف كومة من الحجارة السوداء قد أقيمت كمعقل دائم على القمة. وتجتاح الصفا في الصيف جحافل الغزاة. فتجوس خلاله قبيلة ضخمة مثل عنزة لتسدد ضربة إلى بعض أعدائها في الشمال أو الجنوب جارفين الغياث في طريقهم. وحيث لا يوجد الماء إلا في أماكن قليلة جداً في هذا القفر الصخري المتفاوت بدرجات الحرارة بين الليل والنهار فإن الغزاة شأنهم شان الغياث المتبقين في السهل ليس لديهم خيار إلا أن يرتادوا في الظلام برك الماء الموحلة نفسها. ويقضي الغياث أيامهم ليل نهار مطاردين مذعورين حتى تخرج القبيلة الكبيرة من الصفا متجهة مرة أخرى نحو الشرق إلى الحماد. ولم يكن هناك أي أثر لخيام يمكن رؤيتها من القنطرة. وبدا من

المحتمل أن نقضي الليل دون ماء بين الصخور تحت سماء جليدية، عندما صرخ خطاب قبيل غياب الشمس بنحو ساعة أنه استطاع أن يرى دخان مضارب بدو في الشمال الغربي، فعدنا مسافة كبيرة إلى الخلف إلى حيث أشار على شكل نصف قوس، ووصلنا إلى الخيام حوالي غياب الشمس بعد رحلة استمرت تسع ساعات. ومع عودة الماعز والجمال من مراعيها بعد يوم مجهد

٦١ ـ معبد المشنف

في الرعي كنا نسير باضطراب فوق الصخور. وكان منظر المخيم ضئيلاً وتعيساً على الرغم من أننا كنا في شوق كبير للوصول إليه.

كان كل ما تملكه عشيرة الغياث في الدنيا لا يصل ثمنه إلى مئتي ليرة ذهبية إلا بصعوبة. لم يكن لديهم شيء إلا خيامهم السوداء وعدد قليل جداً من الجمال ودلال القهوة، وإذا كان لديهم شيء آخر من سابق فقد أخذه غزو الصيف. كانوا يعيشون على الخبز فقط ـ الشراك وهو رقائق من الخبز تشبه الأوراق البنية ـ وهم يقضون طيلة أيامهم في التجول بين الصخور خائفين على أرواحهم عدا شهراً أو شهرين عندما يذهبون إلى جبل الدروز من أجل المرعى.

وتوزعنا لأننا كنا مجموعة كبيرة. وذهبت أنا وكشكاش وفندي إلى بيت الشيخ الذي كان اسمه فهيم، وأشعل ابناه محمد وحمد ناراً من الشوك وبعر الجمال الذي يدخن على نحو بغيض. وجلسنا حول النار نراقب صنع القهوة وتولى محمد الأكبر تلك المهمة. كان ماهراً في دق المهباج وكان يضرب لحناً رائعاً أثناء دق القهوة المحمصة في المهباج. كان وجهه أسمر ونحيلاً وكانت أسنانه البيضاء تلمع عندما يبتسم. وقد ارتدى ثوباً خفيفاً من القطن الأبيض وحطة قطنية تنزل من تحت عقاله المصنوع من وبر الجمال حتى صدره العاري.

وكان يتحدث من بلعومه على نحو تصعب متابعته. كان عشاؤنا من الخبز والدبس. كان الغياث فقراء جداً لا يستطيعون ذبح ماشية لضيوفهم. حتى ولو كانوا شخصيات هامة مثل كشكاش. كان في جوهره رجلاً أحمق. هندم نفسه وانتفخ غروراً وأخذ يمشط شاربيه الضخمين أمام نظرات إعجاب مضيفه

وتكلم بدون توقف حتى وقت متأخر من الليل، كلاماً سخيفاً فيما أظن أنا التي كنت مشوقة لأن يسمح لي بالنوم. كان لدي لحاف كغطاء وكان سرجي مخدة واضطجعت في زاوية قرب الساحة وهي القسم المقابل لقسم النساء. ومن حين لآخر كنت أستمع إلى محادثة ليست بالضرورة مهذبة على نحو خاص وفي أحيان أخرى كنت ألعن الدخان اللاذع. وحوالي منتصف الليل استيقظت على ضوء القمر المشرق وهو يرسل أشعة متلألئة حقيقية إلى قلب الخيمة.

كانت النار قد خبت في الأسفل والدخان تصاعد نحو الأعلى. وكان العرب والدروز قد ناموا حول الموقد البارد، وكان يقف فرسان بسكون قرب عمود الخيمة يحدقان بعيون كليمة بفارسيهما في الداخل وخلفهما جمل اضطجع بغباء بين الحجارة السوداء. كانت غرابة وجمال المنظر الساكن القديم قدم العالم قد أخذ بمجامع القلب وحفز الخيال حتى بعد أن خلد إلى النوم مرة أخرى.

وقبل الفجر نجح ميخائيل بعمل قدح من الشاي على لهب نار مناسبة من الشوك. وعندما كانت الشمس في أوائل أشعتها الذهبية كنا نركب جيادنا لأن أمامنا مسيراً طويلاً. وقد كسا «نور الله». السهل الأسود بملاحة بديعة، وألقت أشعة الشمس المنبسطة التي كنا نسير باتجاهها هالة من الذهب الوهاج على كل حجر.

ووقفت سلسلة التلال البركانية الشرقية بحدودها الواضحة المسننة مقابل السماء الصافية، وإلى الشمال الغربي تألقت الثلوج فوق سلسلة جبال لبنان الشرقية وجبل حرمون على نحو لا يوصف فوق السواد اللامع لأرض الصفا المنبسطة أمامها. وانضم أحد العرب إلى مجموعتنا كدليل، وكان اسمه

عواد. كان يركب جملاً وكان يتحدث إلينا من ذلك الموقع المتميز بصوت أجش عال كما لو أنه يريد أن يجسر المسافة الكبيرة ما بين راكب الجمل وراكب الفرس. وكنا جميعاً نرتجف من البرد بسبب انطلاقنا في الفجر البارد، ولكنَّ عواداً أدار المسألة وحولها إلى نكتة فصاح من على ظهر جمله: «يا سيدة، يا سيدة، أتعرفين لماذا أنا بردان؟ لأن لدي أربع زوجات في البيت» وضحك الآخرون، لأن له سمعة كزير نساء صغير. وهكذا فإن ما يملكه من أموال يذهب لاستكمال نصاب حريمه وليس لملء خزانة ثيابه.

فكرت أنه يجب أن ندخل سريعاً غدير الفرز مرة أخرى. بعد مسيرة ساعتين عبرنا أرضاً مرتفعة قليلاً إلى الجنوب الغربي من تلول الصفا وهي خط المرتفعات البركانية وخببنا خيولنا عبر أرض منبسطة صفراء خالية من الحجارة على جانب لا بأس به من الاتساع ويطلق عليها اسم البيضا. وسرنا حتى وصلنا إلى الجهة الجنوبية من سرير اللابة.

كانت اللابة تقع على يسارنا ككابوس بحري أسود مريع، ولم تكن متجمدة تماماً كالخثارة. كما لو كان فزع خفي قد أوقف طوفانها وحفر خطوطاً من الخوف المقلص على سطحها. ولكن منذ زمن موغل في القدم رفعت يد قوية رأس غرغونة[1] قبل موجات تلول الصفا. وقد شكلت أشعة الشمس الحارقة والصقيع وتوالي الدهور المكونات الأصلية للحمم البركانية مصدعة سرير اللابة محطمة الجروف وطامسة المعالم الأصلية للتلال. وقد وطدت شجرة أو شجرتان من البطم لهما موطئ قدم في بعض الصدوع ولكني عندما مررت من

(١) الغرغونة: إحدى أخوات ثلاث في الميثولوجيا الإغريقية رؤوسها مكسوة بالأفاعي يتحول كل من ينظر إليهن إلى حجر. (المترجم)

هناك كانت هاتان الشجرتان مازالتا عاريتين ورماديتين ولم تخربا شيئاً من المنظر العام للقفر الخالي من الحياة. وبينما كنا ندور حول حدود الأرض الميتة أصبحت أعرف أنني أتبع مسلكاً قديماً قدم هذه الهضاب خيطاً رفيعاً من التاريخ الإنساني يقودنا مباشرة عبر الأرض الممنوعة. وطفق عواد يتحدث عن صخرة سماها «العبلة» وهي كلمة تعني صخرة بيضاء يمكن مشاهدتها من بعيد ولكني كنت قد اعتدت على سماع أسماء لا ترمز إلى شيء حتى أنني لم أعر المسألة أي اهتمام حتى أوقف جمله وصرخ:

يا سيده.. ها هي.. بوجه الله إنها العبلة..

لم تكن أكثر ولا أقل من حجرة بئر، وهي محاطة بثلم حبل بعمق بوصتين ويجب أن تكون قد استخدمت لوقت طويل وذلك أن هذه الصخور السوداء صلبة جداً، ولكن لا يوجد أي بئر على مسافة ميل من هذا الموقع. وعلى مسافة قريبة من الموقع كان يوجد كومة كبيرة من الحجارة ثم تتلوها كومة ثانية فثالثة. وهكذا كومتان أو ثلاثة في كل ربع ميل. وعندما دققت فيها أكثر اكتشفت أنها قد بنيت بناء، ولم تلق هكذا اعتباطاً. لقد تم فتح بعضها من قبل العرب الباحثين عن الكنوز.

وحيثما أزيلت الطبقات العليا تكشف فسحة مربعة قليلة العمق في وسط التلة تم بناؤها من أحجار نصف منحوتة. وقد قال عواد: إنه حسب معرفته فإن أحداً لم يعثر في هذه الأماكن على شيء يدل على ما كانت تحتويه في الماضي. وواضح أن هذه الكومات قد تم عملها لتدل على الطريق في هذا القفر الموحش. ووقف عواد مرة أخرى على بعد عدة مئات من الياردات من الصخور السوداء المستوية مع سطح الأرض كانت تشبه صفحتي كتاب مفتوح

حيث سجلت فيها مختلف الأعراق التي مرت من ذلك الطريق أسماءها على شكل خربشات رديئة يقول العلماء: إنها صفوية في اليونانية والكوفية والعربية[1]. وكان آخر هذه الخربشات هي نقوش أختام القبائل البدوية.

«من شريك بن نقفان بن نفيس بن نعمان» كان هذا أحد النقوش كما أن هناك نقشاً آخر «من بوخاله بن طعان بن أنعام بن رواق بن بوخاله»، ووجد عواد نقش عمه وكان مشوقاً لرؤيته. كما أن هناك نقشاً آخر لم أنسخه على نحو كاف بحيث أسلم بكشف معناه على نحو مؤكد، وربما كان محتوياً على اسمين موصولين بكلمة ابن وفوق كان عدد الأسماء سبعة سجلت على سبعة أسطر مستقيمة ترمز حسب تخيل داسو إلى الكواكب السبعة. وقد تم تهجئة النقش الإغريقي باسم «حنا لوس» التي تعني حنا، أو جون بالإنكليزية. وحنا كلمة سامية ربما كتبها كاتبها بخط غريب عندما كان يخدم في الجيش الروماني. والجمل الكوفية عبارة عن ابتهالات دينية تستنزل البركة على المسافر الذي توقف من أجل أن ينقشها. وهكذا ترك كل إنسان كلٌّ حسب جنسه ونوعه كتابته ورحل إلى غياهب الزمن. ولا نعرف بعد هذه الخربشات على الصخور السوداء أي شيء عن شخصية الكاتب أو جنسه أو تاريخ النقش. ولا عن الظروف التي قادته إلى غدير الغرز القاسي. وقد بدت العبارات وأنا أنسخها وكأنها تمتمات أصوات خافتة صادرة عن الأرواح الهائمة في الماضي المنسي ولن يستطيع اورفوس أن يسحر بقيثارته الصخور لتتحدث على نحو أكثر وضوحاً عن الأجيال الميتة التي مرت بها عبر تاريخها الطويل. إن الصفا جميعها ممتلئة بهذه الهمسات والظلال التي ليست إلا

(١) إن الخط الكوفي هو أحد الخطوط العربية وليس خط لغة أخرى (المترجم)

أسماء راعشة في هواء راعش فوق الصخور، تدعو الله بألسنتها الغائصة في غياهب الزمن.

ونسخت ما نسخته بسرعة لأنه لم يكن هناك وقت كبير لأضيعه ذلك النهار، كان الدروز يقفون حولي بنفاذ صبر، وكان عواد يصرخ «يا الله، يا الله يا ست» التي تعني (عجلي). وركبنا حتى الطرف الشرقي للصفا، ملتفين حول زاوية سرير اللابة وشاهدنا السهل الأصفر لمنطقة الرحبة أمامنا.

وقد بدا لي عندما نظرت إليه من قمم جبل الدروز كأنما يمتد مسافة بعيدة إلى الشرق، ولكنه بدا عندما وصلنا إليه لا يتجاوز عرضه نصف ميل وكان يمتد خلفه بحيرة رائعة الجمال من الماء السديمي المزرق. وارتفعت الصخور البركانية القليلة الموجودة إلى الشرق كجزر خارج البحر وقد سحرت في المياه الموجودة عند أقدامها.

٦٢ ـ القلعة البيضاء

ولكن مع سيرنا باتجاه الغيض المائي إلى الداخل كانت شواطئه تتراجع أمامنا، لأنه لم يكن إلا سرابًا، حيث يخاله ضيوف حرة الصفا ماء ولا يزدادون بالسير نحوه إلا عطشاً ثم شاهدنا على حافة تلال اللابة برجاً رمادياً كان يرقد في السهل الواقع تحته مباشرة قبة مزار بيضاء، وكان هذا الموقع يدعى خربة البيضا، والمزار مزار الشيخ سُراق، وقد ورث الشيخ سراق موقعه كحارس للرحبة من زيوس سافاتينوس الذي كان بدوره الوريث المباشر للإله (إد)؛ إله الصفا الأكثر قدماً، كان عمله أن يرعى المحاصيل التي تنتجها الأرض المحيطة به والتي يزرعها العرب في السنين الخيّرة حيث تقطن روحه، وهو مقدس عند الدروز والمسلمين، وتتولى روحه رعاية عيد سنوي مَرّ قبل وصولي بأسبوعين.

والمزار مبني بالأسلوب الحوراني مع سقف حجري دُعم بأقواس متصلة، وثمة نقش فوق الباب أُخذ من خربة القلعة البيضاء.

واستطعت بشق النفس أن أبقى حيث رجالي مجتمعون هنا، وكنت مشوقة جداً لرؤية القلعة البيضا أو الخربة البيضا حيث يلفظها العرب على الوجهين، وتركت الدروز يلتمسون البركة من زيوس سافاتينوس أو من أيٍّ كان وخببت باتجاه حافة مصطبة اللابة.

كان ثمة منخفض عميق من الأرض يقع أمامها، وكان ممتلئاً بالماء إلى درجة أنني اضطررت إلى عبوره فوق جسر خشبي صغير نصب فوقه، وكان حبيب هناك يسقي بغلته، تلك البغلة التي تسابق الخيل، وعهدت إليه بحصاني، وأسرعت فوق صخر اللابة المتكسرة إلى داخل بهو القلعة. كان ثمة عربيان يمشيان الهوينا فيه، ولكنهم لم يعيروني إلا اهتماماً ضئيلاً مثلما فعلت أنا. هذه هي إذن القلعة الشهيرة حامية الأرض الميتة غير المسكونة، وحامية

الصفا ضد الحماد، لقد ارتفعت أسوارها المكونة من حجارة بيضاء رمادية فوق حجارة سوداء قد تم نحتها على نحو صقيل، المقر الشبحي القوي لعالم

٦٣ ـ قلعة البيضا

من الأشباح.. أيدي من تلك التي بنتها؟ من هذا الذي زين حُلاها الدرجية على أعمدة الأبواب والعتبات، عيون من تلك التي بقيت يقظى ساهرة على الأبراج، لا تستطيع أن تتمتع بأي يقين؟ هل تطلع حنا لوس وشريك وبوخالد إليها بينما كانوا يدورون حول زوايا وادي الغرز؟ وربما كان الإله (إل) قد شملها بحمايته، وربما رجعت بعض صلوات الشوافين إلى معبد بعيد، وقدمت إلى آلهة يونانية أو رومانية.. آلاف من الأسئلة التي لا جواب عليها تقفز إلى ذهنك وأنت تخطو عتبة القاعة.

وقد وصف دوفوج و اوبنهايم وداسو خربة البيضا، وأي إنسان ممن اهتم بأن يقرأ ما كتبوه يعرف أنها بناء مربع محاط بأربعة أبراج في زواياه الأربع ونتوءات مدورة بين الأبراج ودعامات مستطيلة قائمة على السور الجنوبي، وقد زينت بواباتها بتزيينات بارزة رائعة؛ حلَى معمارية درجية أو أوراق وأزهار وحيوانات ترعى خلالها. وأنها ربما كانت قلعة حدودٍ رومانية بنيت ما بين القرنين الثاني والرابع الميلاديين[1]، وتبقى الحقيقة بأننا غير متأكدين من أصولها أكثر مما نحن متأكدين من أصول الخرب القريبة منها في جبل سيس أو في المشتى أو أي بناء آخر قديم في الصحراء العربية. ثمة أمور متشابهة بينها جميعاً، كما إن ثمة اختلافات بيّنة، كما هو واضح من التشابه بين قلعة البيضا وفن العمارة في حوران.

وبعد.. أي نحات من نحاتي الجبل قد ترك لخياله العنان بحيث بز القواعد التقليدية في النحت؟ وذلك مثل ما فعل الرجل الذي نحت صور الحيوانات الصحروية حول أبواب القلعة البيضاء؟ ثمة نقش غريب بعض

(١) لقد ثبت من التحريات الحديثة أن معظم هذه القصور والقلاع في البادية تعود إلى العصر الأموي. (المترجم)

الشيء عن أسلوب النحت في الجوار، وحشي محرر الخيال ليس ماهراً مثل ذلك النحات الذي نحت آثار قصر المشتى، ولكنه أقسى وربما كان أقدم. كلها أعمال خاضعة للتخمين. وقد تفشي الصحراء أسرارها إذا قرئت رسائل الصخور، وضُمَّ تاريخ الصفا والرحبة إلى بعضها ولكي يتم ذلك يحتاج الأمر إلى القيام برحلات أكثر في البداية وتنقيبات في الحدود السورية مع البادية وفي الحيرة وربما في اليمن.

ولكني أود فقط أن أقدم ملاحظة، وهي أن الأبنية الموجودة في قلعة البيضا لا يمكن كما هي عليه الآن أن تكون منتمية إلى نفس الفترة الزمنية، فالصيانة قد تمت في وقت متأخر عن تصوينة الأسوار بين البروج، على حين أن هذه الأبراج بنيت بالملاط مثل المعسكر الروماني في القسطل وفي قلعة الموقر فإن تصوينة الأسوار من حجارة خالية من الملاط تشبه تلك الأبنية السائدة في حوران كما أن في أسوارها حجارة منقوشة من المؤكد أنها قد وضعت في غير المكان الذي نحتت من أجله، وحتى الزينة حول باب القلعة الرئيسي كانت من حجارة مأخوذة من مكان آخر، والحجران المنحوتان الموضوعان في عتبة الباب العليا غير متوافقين مع بعضهما، كما أنهما غير متوافقين مع البوابة.

ولكن النتيجة الوحيدة التي أغامر بتسجيلها أن المقترحين حول أصل القلعة، واللذان قدمهما علماء الآثار، والذي يقول الأول منهما إنها معسكر روماني، والثاني الذي يقول إنها قلعة غسانية. قد يكون أيّ منهما صحيحاً.

وحافة نجد اللابة البركانية يرتفع عن السهل المجاور أقداماً قليلة، ويوجد على طول هذا الحاجر الدفاعي الطبيعي أبنية أخرى إضافة للقلعة البيضاء، ولكنها ليست بذات الأهمية؛ فقد بنيت أسوارها من أحجار التوفة

المسامية المربعة وضعت فوق بعضها بدون ملاط، على حين بنيت القلعة البيضاء من حجر رمادي، وبني قسم منها مع استعمال الملاط.

والبناء الوحيد الذي يرتدي بعض الأهمية من الأبنية التي زرتها يقع على بُعدٍ قليلٍ إلى الشمال قد سقف بالأسلوب الحوراني بأحجار مسطحة وضعت فوق أقواس مرسلة. وثمة أبراج صغيرة على مسافات متقطعة على طول سرير اللابة البركانية تشبه مخافر الحراسة تراقب الاقتراب من القلعة وقد بنيت هذه أيضاً بدون ملاط.

كان كل ما سمحنا به لأنفسنا بالتوقف والاستراحة ساعتين؛ وذلك لأنه كان علينا أن نكون على مرأى من مخيمنا قبل حلول الظلام؛ خوفاً من قضاء الليل بعيداً في حرة الصفا. وهكذا انطلقنا في اتجاه معسكرنا بعد التهام بقية الفراريج الخمسة التي اشتريناها من أم الرويق منكّهة بالبصل الحرّيف جداً الذي اكتشفه عوّاد في اللابة، ولم نسر أكثر من أربع ساعات في طريق العودة حتى رأينا الدخان المنبعث من نيران مخيمنا، فانطلقنا فوراً باتجاهه.

وقد قادتنا إليه سلسلة من الأحواز الحجرية الواضحة، وهذه الأماكن المفتوحة هي مراح قبيلة عنزة الذين كانوا قد اعتادوا أن يخيموا في حرة الصفا قبل أن يثبت الدروز أقدامهم في الجبل قبل قرن من الزمان [1].

وقد بقي مراح عنزة بيّناً يمكن رؤيته بعد أكثر من قرن، وربما سوف يبقى كذلك لعدة قرون أخرى. وثار في المساء هواءٌ باردٌ واضطررنا أن ندير الرواق

(١) الواقع أن الدروز بدؤوا بالهجرة إلى جبل الريان الذي سمى فيما بعد جبل الدروز بعد معركة عين دارة التي حدثت بين القيسيين واليمنيين عام ١٦٩٦م، وانتصر فيها القيسيون، فبدأ اليمنيون من الدروز بالهجرة إلى جبل حوران، أو جبل الريان. (المترجم)

الرئيسي للخيمة من أجل حمايتنا على نحو أفضل من البرد، وقد قضينا ليلة مريحة نتيجة لذلك، وأيقظني البرد عدة مرات في الليل على شعور غير مريح بأنني أنام على عش نمل.

كيف يستطيع العرب أن يجدوا الوسيلة لجمع هذا العدد الكبير من البراغيث في مقتنياتهم القليلة جداً، سرٌّ لا يمكن تفسيره، فلا يوجد إلا مكان محدود جداً لإيوائهم فيما عدا جدران بيت الشعر.

ويجب أن تتمتع بمهارة كبيرة عندما يتم هدم بيت الشعر وطي جدرانه من أجل البقاء في طيات هذه الجدران والانتقال معها إلى مكان التخييم الجديد. ولا شك أنها كفء لمثل هذه الرحلة، ويعرف ذلك كل من قُدِّر عليه أن ينام ليلة في بيت شعر البدوي. وقد بدت خيامنا وكأنها جنة النعيم بعد قضائنا ليلتين في خيام الغياث عندما عدنا إليها عصر اليوم التالي. وحمام تعتبر في الأوج لمن يستطيع أن يعيش الحياة السيبيرية حتى لو تمت في حرارة منخفضة بضع درجات عن درجة التجمد.

وقعت حادثة أثناء ركوبنا باتجاه مخيمنا، حادثة جديرة بالتسجيل، حيث تتعلق بالعادات الدرزية. تنقسم الطائفة كما قد لوحظ من سابق إلى عاقلين وجُهّال، والفرق بين الطرفين بالنسبة للغريب هو أن العارفين أو العقال ممنوعون من التدخين، وقد لاحظت عندما قضيت أمسية في صالة في بيت محمد النصر أن لا أحد من أفراد الأسرة حاول التدخين؛ ولذلك فقد دهشت عندما طلب فايز ـ وقد وجد نفسه وحيداً معي ومع ميخائيل ـ سيجارة من ميخائيل. وقد اعتذرت عندئذ؛ لأنني أغفلتُ تقديم سيجارة له قائلة: إنني قد

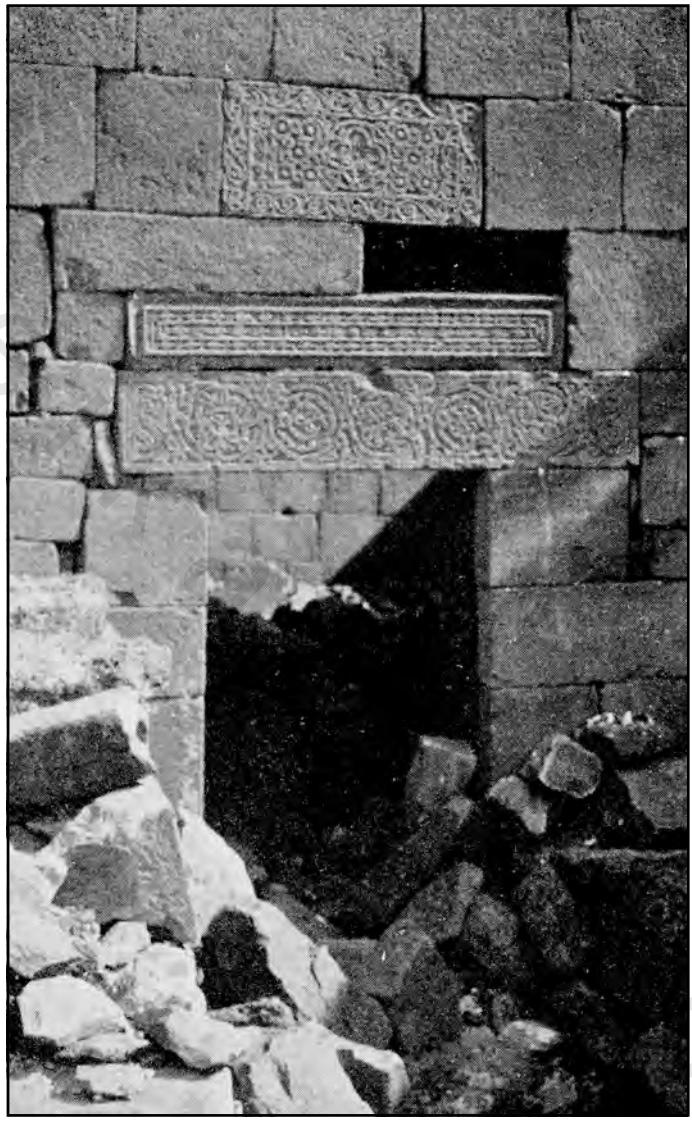

٦٤ ـ قلعة البيضا، باب التصوينة

فهمت أن التدخين ممنوع بالنسبة للعُقّال الذي هو منهم. وطَرَف فايز بعينيه المزويتين، وأجاب بأن الأمر كما ذكرت، وأنه ما كان ليقبل أن يأخذ سيجارة لو

كان أحد من الدروز موجوداً، ولكن حيث لا يوجد أي من أبناء طائفته فسوف يعطي لنفسه حرية التمتع بالتدخين، ورجاني أن لا أذكر شيئاً عن هذا الانحراف عن العقيدة أمام أخيه.

وفي تلك الليلة في مضافة أم الرويق تناقشنا أنا والمشايخ الثلاثة، ووضعنا خططاً من أجل القيام برحلات استكشافية أبعد في حرة الصفا،

٦٥ ـ حُلًى معمارية من القلعة البيضا ومن تدمر، الحجرة القائمة من قلعة البيضا

واتفقنا على عدد الجِمال التي سوف آخذها معي، وحتى الهدايا التي سوف أقدمها للحرس في نهاية الرحلة. وسوف يكون فايز وأحمد وخطاب ضمن بعثة الاستكشاف طبعاً إذا كان الخيار مرتبطاً بي.

في الساعة الثامنة والنصف من صباح اليوم التالي بدأنا رحلة مسيرة الأيام الثلاثة إلى دمشق. بالنسبة لأم الرويق أريد أن أضيف أننا احتجنا ثلاثة أيام من أجل أن نجمع بصعوبة من مجموع سكانها مبلغاً من المال يعادل ليرة ذهبية واحدة. وكنا قد جلبنا معنا حقيبة من النقود النحاسية والفضية عندما خرجنا من القدس، وعندما أنفقت وجدنا منتهى الصعوبة في دفع ديوننا، وهذه واحدة من التلميحات الموجهة إلى الرحالة، التي ناقشني ميخائيل بوجوب الإشارة إليها في الكتاب الذي سوف أكتبه.

وسرنا عبر منحدرات فاتنة ـ مغطاة ـ حيثما كانت الثلوج ذائبة ـ بالسوسن الأزرق الغامق، وقضينا ساعة أو ساعتين في شكا التي كانت أحد المشاهد الرئيسية التي تحدث عنها عالم الآثار دوفوج. والباسيليكا التي كانت صورة تامة على عهده تقريباً هي الآن حطام تماماً.

ولم يبق إلا الواجهة، ولكن القيصرية ما تزال قائمة والدير الذي يعتقد أنه الأقدم بين الأديرة في الوجود[1]، ومررنا بجانب حيت وهي قرية ظريفة تحتوي على بيت يعود إلى ما قبل الإسلام يسكنه الشيخ، ونصبنا مخيمنا في باثانية في جو صقيعي أرسلني مرتجفة إلى الفراش. وكان ثمة جدول جارٍ قد تحول كلياً إلى جليد. وعملت جولة في اليوم التالي لزيارة الحيات، حيث كان

(١) الواقع أن هذه الآثار بقيت سليمة إلى حد بعيد أكثر من ألف سنة حتى بدأ الرحالة الأوربيون والأمريكيون يفدون إلى البلاد، وباعتبار أنهم في معظمهم من اللصوص فقد تعاونوا مع الجهلة وطمعوهم بالمال من أجل تهريب هذه الآثار وسرقة أكبر مقدار ممكن منها. (المترجم)

هناك قليبة بديعة كتب عنها (فوجيه Vogue) وقلعة وكنت أريد أن أسد بعض الثغرات المتخلفة عن رحلتي السابقة، وأرى أي نوع من الأبنية يمكن العثور عليها في المنحدرات الشمالية للجبل إذا لم أستطع أن أفعل شيئاً آخر أكثر.

٦٦ ـ بوابة شكا

لقد امتلأت القرى الكبيرة بسرعة بالناس، ولن يبقى إلا أثار قليلة في سنوات قليلة. وهكذا هبطنا سهلاً متصلاً بطريق اللجا بين شهبا ودمشق في قرية لحيتا، وتبعنا بغالنا إلى براق، أبعد قرية في حوران، ويوجد مركز عسكري في براق فيه عشرون عسكرياً، وقابلنا قبل أن نصل إليه فتاة درزية صغيرة كانت تجثم مرتعدة على جانب الطريق وقد بكت خوفاً عندما شاهدتنا «أنا خادمة» صرخت «أنا خادمة»، وتلقى كلماتها ظلاً من الشؤم على النظام التركي الذي سوف نجد أنفسنا تحته مرة ثانية. وأمام القلعة تقريباً مررنا باثنين من الدروز عائدين من دمشق، وقد حيوني تحية ودودة، وقلت: «هل أنتم متجهون إلى الجبل؟»

قالا: «بالله، الله يسلمك»

قلت: أنا قادمة من هناك سلموا عليه!!

فأجابا: الله يسلمك ! مع السلامة!.

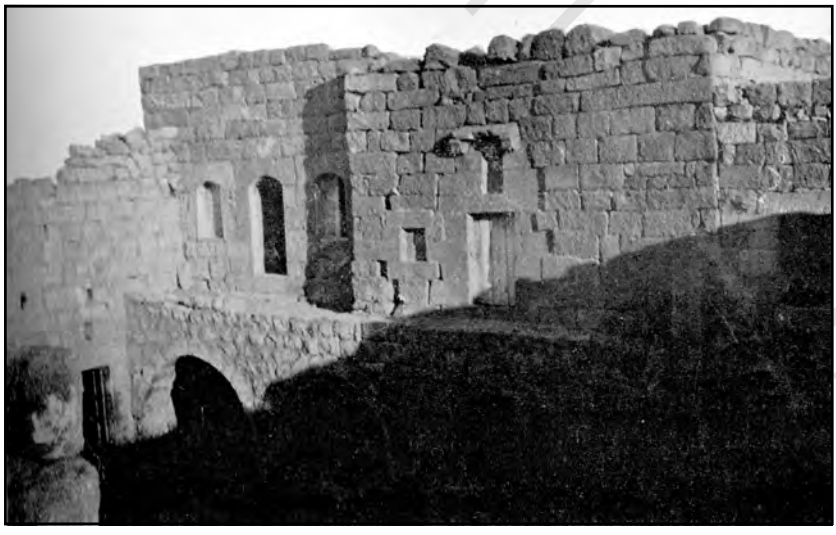

٦٧ ـ منزل الشيخ في الحيات

لا يترك الرحالة جبل الدروز خلفه بدون غصة، ودون أن يأخذ على نفسه عهداً بأن يعود إليه حالما يستطيع.

والأتراك في براق (كان الأتراك شعباً رائعاً في الجزء الشمالي من آسيا الصغرى) حاولوا إقناعي بقوة بالعدول عن أخذ الطريق القصير مقاطعة عبر الهضاب إلى دمشق، وكان النصح بقوة إلى درجة جعلتني أتخلى تقريباً عن الفكرة. لقد قالوا إن الهضاب محاطة باللصوص، وربما كانت خالية من مضارب العرب في هذا الوقت من السنة؛ ولذلك فإن اللصوص يسرحون فيها وحدهم ويمرحون. ولحسن الحظ سمعنا في صباح اليوم التالي أن مجموعة من الجنود قد تقرر إرسالها إلى دمشق عن طريق التلال، وقد شجعنا الخبر على أخذ نفس الطريق، ولم نرهم على الإطلاق.

وأنا لا أعتقد أنه كان لهم أي وجود حقيقي، ومن جهة أخرى فقد رأينا بعض الخيام السوداء التي أشعرنا وجودها بالثقة والأمان في أسوأ نقطة من الطريق، ويجب أن يكون اللصوص متورطين في مكان آخر، ولذلك لم يظهروا على الإطلاق، ولكني لاحظت باهتمام لأول وهلة أن الصحراء تمتد إلى مسافة لا تبعد أكثر من ساعتين عن دمشق، وهي حقيقة لم أكن قادرة على ملاحظتها سابقاً عندما سافرت على الطريق الرئيسي.

والملاحظة الثانية هي أن السلم السلطاني إذا كان من الممكن أن ندعوه سلماً لا يجاوز جدران المدن الرئيسية في سوريا. وعبرنا نهر الأعوج ووصلنا بسرعة بعد منتصف النهار إلى قرية نجها الشركسية حين توقفت لأتغدى تحت عدد قليل من شجر الحور، وهي المجموعة الأولى من الأشجار التي رأيتها منذ غادرت السلط. سواء ركبت باتجاه دمشق متخذاً الطريق القصير

مقاطعة أو الطريق الرئيسي من حوران أو من تدمر فإنك سوف تجد هذا الطريق دائماً أبعد من أي طريق أنت تعرفه. ربما بسبب شوق الرحالة المسافر لأن يصل بسرعة إلى مدينة العرب الرائعة العظيمة الواقعة ضمن حزام من الأشجار المثمرة والممتلئة أجواؤها بدمدمات الأنهار الجارية. ولكن إذا كان صبوراً فقط فليس هناك من طريق بلا نهاية.

ونحن أيضاً وصلنا في النهاية إلى حافة بساتين المشمش، ثم عبرنا بوابة الله، وبعد ذلك مررنا من حي الميدان ذلك الحي الطويل المزدان بالدكاكين والخانات ممتداً يشبه يد ملعقة كبيرة في وعاء ممتلئ بالمآذن والقبب في أحياء دمشق الغنية. وفي الساعة الرابعة بعد الظهر كنت قد أويت إلى فندق فكتوريا وحصلت على بريد شهر من الرسائل والصحف.

openkandl.com